بين الالتزام بالثنائية الحزبية في الجنوب.. و«السباحة عكس التيّار»

ما إن ترجّل علي من «الفان» حتى أخذ ينظر يميناً وشمالاً، علّه يجد مكاناً صغيراً يتّقي فيه شمس آب الحارقة، ريثما يجد سيارة تقلّه إلى بلدته. فجأة، وقعت عيناه مباشرة على ظلّ شجرة، بجانبها رايتان، خضراء وصفراء، تمثّلان القوى السياسية الرئيسية في الجنوب، أي حركة أمل وحزب الله، موضوعتان أمام واجهة أحد المحال التجارية.

لم يجد علي مكاناً أفضل يستظل به، كونه محاذياً للطريق الذي يسلكه عند عودته لبلدته، فآثر الوقوف بينهما، فيما تفكيره منصب فقط على لحظة الوصول إلى المنزل، بعدما أرهقه الحرّ.

لم ينتبه علي أن وقوفه كان اقرب إلى الراية الصفراء منه إلى الخضراء، إلا بعد أن ناداه يوسف، سائق التاكسي من بلدته: «خيي، ليش ما بتوقف حد الأخضر، عاملينك شي يعني؟». استجاب علي سريعاً لطلب يوسف بالوقوف إلى جانب الراية الخضراء، كرمى لخاطره، مبرراً «تصرفه» السابق بعدم الانتباه. لكن يوسف يستدرك: «مش مشكلة على كل حال، نحنا ما إلنا إلا هني، وما منأيّد غيرن، يعني مين بدنا نتبع؟».

عبارة يوسف تتردد تلقائيا على ألسنة معظم شباب الجنوب. والشعارات التي يرفعها كل من «حزب الله» و«حركة أمل» وجدت صدى واسعاً بينهم، إلى حد أنها حازت درجة القدسية، وأصبحت من المسلمات. بورصة الانتماء الحزبيّ هناك تشهد إقبالاً قياسياً على أسهم هاتين الفئتين، حتى بات التداول محصوراً بهما.

الآخر لا وجود له في وجدان غالبية هؤلاء الشباب، ما خلا القليل منهم، الذين أخذوا يبحثون عن وجهة مختلفة وانتماء آخر، يخرجهم من الحيز السياسي المحدود والمحصور الذي يعيشون فيه، علّهم بذلك يجدون فيه ما يحاكي أفكارهم التوّاقة إلى التحرر من أي قيد حزبي، فيعبروا من خلاله إلى رحاب الوطن الواسع، كما يأملون.

غير أن الواقع كان لهم بالمرصاد، فاصطدموا بجداره الذي فرض عليهم التكيّف معه والتسليم بحقيقته، واكتشفوا أنهم بذلك كمن «يسبح عكس التيار»، فحاذروا الغرق فيه، بمجاراته تارة، والتمرد عليه تارة أخرى، من دون التخلي عما يؤمنون به.

معاً ننتصر.. في صور (م.ع.م)

تأبى ديانا زريق، طالبة ماجستير علوم اجتماعية، أن تكون تابعة لأحد. فبرأيها لا يوجد أي حزب أو تنظيم في الجنوب يعبّر عن آمالها وتطلعاتها. لكن جل ما تطلبه ديانا هو النظر إليها والتعاطي معها على أنها فرد له حقوقه السياسية والاجتماعية، يجب الأخذ بها واحترامها، بمعزل عن رأيها بالثنائية الشيعية، أي أمل وحزب الله.

موقف كهذا ترى ديانا، من النبطية، أنه يندرج ضمن حرية الرأي والتعبير التي يتمتع بها أي مواطن، «وهذا الأمر لا يعطي لأحد الحق بتصنيفي في خانة المعادين والمتآمرين وأصحاب المشاريع المشبوهة، لمجرد أن لي رأياً آخر قد لا يعجبهم».

التزام سياسي وفكري

هذه الاستقلالية الفكرية والحزبية التي تتمتع بها ديانا، يقابلها إيمان مطلق استناداً إلى قاعدة عقائدية ومبدئية أملت على علي حسون، من قرية البابلية الجنوبية، الالتزام بالخط السياسي والفكري لهذه الثنائية الشيعية، وخصوصاً حركة أمل، فهو لا ينتسب إليها فقط، بل يعتز بذلك الانتساب، انطلاقا من واجب وطني وديني، يعيده إلى سببين:

الأول، هو المقاومة التي حملت أمل لواءها منذ انطلاقتها، والثاني: مطابقة مبادئها وشعاراتها والواقع الذي يؤمن به، عوضا عن الشعارات الفضفاضة التي يطرحها الآخرون، كما يقول حسون، طالب دكتوراه في القانون الدستوري. «فالحركة هي الوحيدة التي تطبق القول بالفعل، وخير مثال على ذلك الكم الهائل من المشاريع الإنمائية في الجنوب». غير أن حسون يتجاهل في موقفه هذا أن تطبيق شعار رفع الحرمان عن الجنوب، الذي نودي به في الماضي، اقتصر على فئة الموالين والمحازبين، فيما الآخرون ما زالوا ينتظرون أن يشملهم نعيم هذا الشعار.

حسين سلامة يذهب أبعد من ذلك في رفضه «تهمة الثنائية». فبرأي طالب السنة الأولى في العلوم السياسية أن «الثنائية» كلمة حق يراد بها باطل. وهو يرى أن مجرد طرح وجود فريقين فقط على الساحة الجنوبية هو مجاف للواقع والحقيقة، فالتنوع الحزبي، مثل اليسار والقوى الوطنية والقومية سمة هذه الساحة، لكن الغالبية هي لأمل وحزب الله. ويرد هذا الأمر إلى تجربة عشرات السنين، نتيجة للمؤامرات والاعتداءات التي تعرض لها الجنوب، والتي فرضت بدورها وجود إجماع على هاتين القوتين. ويدرج سلامة، من مدينة صور، الأحزاب الوطنية والقومية في إطار حالة التنوع السائدة في الجنوب، متجاهلاً أن هذه الأحزاب، باستثناء اليسارية منها، لا تخرج عن حدود الدائرة التي رسمتها هذه الثنائية وحددت شروط اللعب داخلها.

خرق موسمي

تجسد ديانا واقع علاقة الود والحب التي نشأت ما بين هاتين القوتين وقواعدهما الشعبية، بالمثل القائل: «يلي بيتزوج أمي بقلو يا عمي». وعلى الرغم من تمردها وثورتها أحياناً على واقعها، إلا أنها تتعامل بواقعية شديدة مع هذه الثنائية، وتعي جيداً حجم التأييد والاحترام الذي تتمتع به بين الجمهور الجنوبي. وهي إذ تسلم بأن «الحركة والحزب» قوتان لا يمكن لأي عاقل تجاهلهما أو القفز فوقهما، كونهما اكتسبتا شرعيتهما من البيئة الحاضنة لهما، لكنها في المقابل تحبذ التنوع الذي تشرح طبيعته قائلة:

«على هذه الثنائية الخروج من الحلقة الحزبية الضيقة إلى فضاء المجتمع ككل، بحيث لا يقتصر اهتمامها وتوزيع الحصص والمغانم على المحازبين والأنصار وحاشيتهم من دون الآخرين، بل يجب أن تشمل الفائدة الجميع دون استثناء أو تمييز».

ولا تعوّل ديانا كثيراً على بروز فريق أو قوة ثالثة في الجنوب، بل إنها وصفت بعضها بالموسمية والانتهازية التي لا تبرز إلا أثناء الانتخابات، لأنها حاولت شراء القاعدة مستغلة حاجة البعض للمال، من دون النظر إلى خصوصية المجتمع الجنوبي. وهذا ما أدى إلى فشلها في استقطاب شرائح شبابية جنوبية واسعة. لكنها تميّز بين هذه الفئة «الموسمية» وبين أحزاب أخرى وطنية، لها تاريخها في الجنوب، ولديها الحق بالعمل السياسي والحزبي أسوة بطرفي هذه الثنائية.

الانسياق وراء الطائفة

يعد الخروج عن حالة الإجماع عملاً غير مستحب في البيئة الجنوبية التي تعتبر ذلك انحرافاً وشذوذاً عن هذه القاعدة، وهو ما يفسر ميل أكثرية الجيل الشبابي في الجنوب إلى هذه الثنائية، وذلك مردّه إلى عاملين: المقاومة والمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه هؤلاء. وكلا العاملين تركا أثراً كبيراً في خيارات سعدى بيلون، الطالبة في السنة الرابعة جغرافيا، من قرية المجادل، وجعلاها لا تتردد في تأييد جميع الخطوات والخيارات السياسية وغير السياسية لحركة أمل وحزب الله وتبنيها، كونها تصبّ دائما في مصلحة الجنوبين بحسب رأيها.

ولا يكاد الحديث يبدأ عن تبرير البعض للتأييد المطلق لثنائية الحزب والحركة بصوابية الخيارات السياسية لكل من الطرفين، حتى تنتاب يارا شمس الدين من منطقة الحوش في صور، حالة شديدة من الغضب، معلنة رفضها الانسياق الأعمى وراء هذه الثنائية، انطلاقا من حالة عاطفية تفرض عليها الانجرار وراء طائفتها. لذا لا تبدي الفتاة الحائزة على إجازة في إدارة الأعمال حرجاً في تأييد أي رأي أو فكرة أو موقف صائب من أي جهة أتى.

فيارا تؤمن بالتنوع، محددة له إطاراً واضحاً، هو الانتماء الوطني والحرص على المصلحة العامة التي يفتقر إليها السياسيون في وقتنا الحاضر، برأيها. ولا تشترط يارا بهذا التنوع أن يكون حكراً على أحزاب أو قوى سياسية معينة، بل يمكن إن يجسد بأشخاص عاديين يضعون مواطنية الإنسان في الجنوب فوق أي اعتبار، ويملكون هامشا كبيراً من الحرية والاستقلالية عن أي فئة.

العمل السياسي والمقاومة

حالة التأييد عند الشباب الجنوبي لا تقتصر على المقاومة العسكرية فقط، بل تشمل العمل السياسي الذي يعتبره عبد الله يحيى، من كفرا في قضاء بنت جبيل، سنة ثالثة هندسة اتصالات، مكملاً للمقاومة. وهو يدخل تحصيل الحقوق السياسية والخدماتية والإنمائية للجنوبيين في خانة المقاومة السياسية، معتبراً أن الجهد الذي قام وما زال يقوم به نواب ومسؤولو «الثنائية الشيعية»، أدى إلى رفع التمثيل الشيعي في الدولة، من درجة عامل نظافة في بلدية بيروت سابقاً إلى تقاسم وظائف الدرجة الأولى والخدمات مناصفة مع الشركاء الآخرين في الوطن.

غير أن هذا الانجاز المحقق والذي يفتخر به عبد الله لم تصل مفاعيله إلى حدود المواطنية، التي يفترض أن يشعر بها أي شخص في الجنوب، بصفته لبنانياً لا شيعياً. كما انه توقف عند حدود الشخصانية الحزبية التي تقدم الحزبيين على الآخرين، مهما كانت مؤهلاتهم وكفاءاتهم وجدارتهم.

موقف عبد الله يلقى اعتراضا واضحا لدى ماجدة فواز، من العباسية، التي ما أن سمعت بعبارة «شو انتمائك» حتى انتفضت وعلامات اليأس والإحباط واضحة على وجهها: «شو حققولي الاتنين، هني ما بهمهم إلا حاشيتن وزلمن»، فهي تعتبر نفسها وغيرها من أبناء جيلها مهمشين إلى ابعد الحدود.

وترفض ماجدة، سنة رابعة جغرافيا، هذا المزج ما بين تضحيات المقاومة والعمل السياسي الرسمي لطرفي «الثنائية الشيعية»، فبرأيها إذا كانت هذه القوى تفوقت بالأولى وكانت مبعث فخر واعتزاز لها، فقد تنبأت لها بالفشل المحتوم في الثانية، بسبب تفضيلها المصالح الحزبية الضيقة على المصالح المواطنين العامة.

وتشير ماجدة إلى أن الوكالة النيابية التي منحت لنواب هذه الثنائية طيلة السنوات الماضية، بقيت في أدراج مكاتبهم، فهي تشعر أن مهمتهم تقتصر فقط على التعزية وإلقاء الخطب في المآتم والمناسبات العامة، وحث الناس على الصبر والاكتفاء بالنحيب والبكاء على ما وصلنا إليه، «من دون النظر إلى متطلباتنا الأساسية والسعي الجاد والفاعل إلى تأمينها، حتى أننا أحيانا نحسد ممثلي الطوائف الأخرى على انجازاتهم وخدماتهم لمناطقهم وناخبيهم».

وتسأل: ألم ننتخب نواباً لتمثيلنا وإيصال أصواتنا وحاجاتنا إلى السلطة السياسية؟ ألم يع ممثلونا أننا نشاهد ونسمع ونقرأ ونقارن بين منجزاتهم وخدماتهم المعدومة لمناطقنا، وبين منجزات الآخرين وخدماتهم لمناطقهم؟ لماذا التذرع دائما بمحدودية القدرة لديهم، بينما مقدرة الآخرين لا حدود لها؟ أليس هذا يعد استخفاف بعقولنا؟».

حالات قمع.. فردية

ولأن هذه الثنائية الحزبية متهمة بقمع حرية الرأي وكم الأفواه ومصادرة الساحة الجنوبية، فقد أثار هذا السؤال «حفيظة حسون الذي تحدى مطلقي هذه التهم الباطلة برأيه، أن يكون قد مورس أي ضغط أو قمع على أي جهة سياسية في الجنوب، أو منعت أي جهة من ممارسة أي نشاط سياسي أو ثقافي.

لكنه يقرّ بالمقابل بحدوث حالات اعتداء فردية على القوى الأخرى المناوئة للثنائية، دون أن يشرح الدوافع التي دفعت بهؤلاء إلى الإقدام على هذه الأفعال، ومدى الانضباط الحزبي الذي يتمتع به مرتكبوها، وأسباب تكرارها، مكتفياً فقط بتحميل المسؤولية للدولة، لعدم قدرتها على محاسبة الفاعلين!

التحفظ على النقد العلني والتعبير عن حرية الرأي طغيا على موقف بتول كرشت، من باتوليه، سنة ثانية برمجة كومبيوتر، فهما وفقا لها حقان غير معترف بهما على أرض الواقع في لبنان، وإن كانت جميع الأحزاب والتنظيمات والتيارات السياسية تتباهى في أدبياتها وبرامجها بأنها حريصة على صون هذا الحق في مناطق نفوذها وسيطرتها.. لكن «القول شيء والفعل شيء آخر».

وانطلاقا من هذا الواقع الذي تقرأه بتول، تتحفظ على إبداء رأيها أو ممارسة أي نقد صريح وعلني لأي جهة كانت، خوفاً من أن يوّلد رأيها الصريح مشاكل لها، لذا تلجأ إلى مجاراة الأمور تارة والسكوت تارة أخرى.

علي دربج

السفير، الاربعاء ٢٦ آب ٢٠٠٩

www.khitat.com